

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَاطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضَ
زُخْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنْهَمْ قَنْدِرُونَ عَلَيْهَا
أَتَهَا أَمْرُنَا يَلَّا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ تُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ٢٤

1- إنه إذا ظن الناس القدرة والإحاطة بالأمر قرب تمامه، حتى ما يحول بينهم وبينه، ويحول الأحداث بعيداً، ليستيقنوا تماماً، ويستيقن الخلق أنهم لا يحيطون بالأمر لا علمً ولا قدرة ولا نتيجة ولا غaiات، وأن هناك إلهاً قاهراً لا يحدث أمر إلا بإذنه، وأن الأمور إنما تقضى من فوق العرش.

قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنْهَمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَمْرُنَا يَلَّا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ تُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ} [يونس من الآية:24].

2- دبرت المجموعة المفسدة في (ثمود) التي كان إفسادها خالصاً بلا شوب صلاح، دبرت أمر قتل النبي الله صالح عليه السلام ليلاً (بياناً)، وجهزت الخطاب التالي بعد مقتله، بحيث بدا إتقان الترتيب، فكان هذا وقت إذنان الله تعالى بنجاة صالح، وراحته منهم، وакتمال مهمته في البلاغ، وهلاك القوم، ومقابلة تدبيرهم بتدبير: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهَطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنْبَيِّنَهُ وَأَهْلُهُ ثُمَّ لَنْفُولَنَّ لَوْلَيْهِ مَا شَهَدْنَا مَهْلَكًا أَهْلَهِ وَإِنَّا لَصَابِرُونَ . وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَّةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل:48-53].

3- دبر كفار قريش مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريقه تبدو محكمة، يتفرق دمه الشريف بعدها وترضى بنو هاشم بالية صاغرين وينتهي أمر هذا الدين ورسالته في الحياة، فكان هذا هو وقت ميلاد دولة الإسلام وخروج رسول الله والمؤمنين من حالة الاضطهاد إلى بداية التاريخ للإسلام وبداية نهاية الشرك وأهله {وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاκِرِينَ} [الأناضال:30]، وكان مكر الله تعالى بهم من حيث لم يظنو، وحدث ما لم يكن في الحسبان، فقتل الصناديد ثم أسلم الأبناء وانتهى الشرك وتمت كلمة الله ودخل الناس في دين الله أفواجاً، جاءت العرب تسلّم وفداً بعد وفداً.

4- قرر فرعون نهاية المؤمنين واستئصالهم وسبق قبلها بخطاب تبريري لما سيقوم به: {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاسِرِينَ إِنَّ هُوَلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ . فَإِنَّا لَجَمِيعُ حَازِرُونَ . فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثَنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَأَتَبْعَوْهُمْ مُشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ

رَبِّي سَيِّدِنَا . فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَابَ الْبَحْرِ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ . وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعْهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ فِي ذَلِكَ لَيْلَةَ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنَّ رَبَّكَ لَهُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } [الشعراء: 53-68].

5- ظن صاحب الجنة الشاك فيبعث، كأنها لا تقبل الهلاك، فأحيط بها {وَمَا أَظْنُنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [الكهف: 36]، {وَاحْبِطْ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} [الكهف: 36].

6- ظن أصحاب الجنة البخلاء بحق المساكين أن يقطفوا ثمارها دون أن ينقصه حق المساكين، وأحكموا أمرهم وخطتهم أن يخرجوا ليلاً يتغافلون، ليأخذوا الثمرة المستيقن وجودها، فهلكت حتى أنهم لم يعرفوها! {فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَّوْنَ . أَنْ لَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِنٌ . وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ} [القلم: 23-26]، فظنوا أنهم دخول بستان آخر غير بستانهم!

7- سُئل بعض السلف بمعرفت ربك؟ قال: "بنقض الهم وفسخ العزائم". والمعنى أنه ما شاء الله كان وما لم يشاً لم يكن، فكم من هم نقضت وعزم فُسخت ولم يتم مراد العبيد، ولهذا يقول تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْوَهُ} [الأنعام من الآية: 112]، {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة من الآية: 102]، فأفعال وتدبر الخلق محاط بقدر الله، ولله تعالى حكمته أن ينفذ تدبر هذا المخلوق ولا ينفذ تدبر آخر، فالكل في قبضة الله تعالى تحيط مشيئته وإرادته القدريه وحكمته بكل حدث، وقبل أن ينفذ أي أمر أراده أي مخلوق فلا يتم إلا بعلمه تعالى وإنه القدرى.

8- وفي نفس المعنى: {فَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّى اللَّهُ بُنْيَاهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حِيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [النحل: 62]، قد تتساءل عن مفتاح هذه الأحداث على الأرض في عالم البشر، فيقال ماذا لو دمر الله تعالى مركز الأحداث ومدبri الأمور وعجل بعض عقابه تعالى؟

أنت تعبد من بيده الأمور، وبقدر تجري الأقلام وتم الأحداث، كل يوم هو في شأن، فلا تنظر إلى الحدث الأخير بل اصرف بصرك إلى أبعد من ذلك، واسأله مع أبيك إبراهيم: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام من الآية: 81-82]، الأمان والهدایة مطلقة في الدارين.

قد تتساءل: ألم يستمر طغاة لزمن طويل نسبياً؟

يقال لك هذا في حال لم توجد فئة مؤمنة ذات إيمان خالص وتضحية.

وقد تتساءل: أليس للمؤمنين أخطاء وذنوب؟

يقال لك إن الله تعالى ليمحص ويبتلي، ويغفر ويزكي، ويُصهر في الابتلاء، ويُجري أقداره لتطهير النفوس وقطع علاقتها بغيره، الله المرتجى، وهو المأمول، وفيه الثقة وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المصادر: